حاتم محمد ياسين

إسهامات حول صورة المرأة في الإبجراما(١) الجنائزية الهللينيستية(٢)

يدل اشتقاق مصطلح " إبجراما " من الكلمة اليونانية ἐπίγραμμα علي أنها في البداية كانت عبارة عن نقش قصير غايته إما إهدائية أو جنائزية: أي أنها كانت وثيقة الصلة بالمناسبات الدينية. في هذه النقوش الجنائزية كان يتم ذكر اسم المتوفى واسم والده ومحل ميلاده ، مما يوحي بأن هدفها الجوهري هو إحياء ذكري المتوفى في ذاكرة الأحياء عن طريق قراءة بياناته المنقوشة علي قبره. أغلب النقوش التي وصلتنا تم تأليفها شعراً وفي البحر السداسي الملحمي ، وبعضها يشتمل علي بيت واحد فقط[٣]. وفي فترة لاحقة (بين القرنين السادس والخلمس ق.م.) شاع استخدام البحر الأليجي بدلاً من السداسي ، وتوجد بعض الأبجراما التي تم تأليفها في البحر الإيامبي الثلاثي أو في مزيج من أكثر من بحر[٤].

في القرن الرابع ق.م طرأ علي الإبجراما تطوراً هاماً يكمن في توسيع نطاقها حيث لم يعد مقتصراً علي تلك الغاية العملية التي ميزتها منذ بداية ظهورها. فلقد بدأ الشعراء في توظيف عناصر أدبية محضة عند تأليف شعر الإبجراما: فبالإضافة إلي النوعين الأساسيين الذين وجدا منذ بداية تأليف هذه النقوش (أي الإبجراما الإهدائية والجنائزية) ، ظهرت أنواع أخري مثل الإبجراما العاطفية والإبجراما ذات الطابع الأدبي. ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل أن يد التطور أمتدت إلى الإبجراما الجنائزية لتكون هي نفسها محوراً تلتقي عنده معظم الأنواع الأخرى. بعبارة أخري استطاع شعراء العصر الهللينستي تحويل الإبجراما إلي نمط أدبي وإلي أداة طيعة ملائمة للتعبير عن مشاعرهم وتجاربهم الذاتية. بالرغم من وجود هذا التطور في الشكل والمضمون ، إلا أن شعراء الإبجراما الهللينستين في أكثر الأحيان حاولوا الحفاظ علي البنية الشكلية[٥] والعناصر الأساسية المكونة لمضمون الإبجراما منذ ظهورها مثل الإشارة لاسم المتوفى واسم والده وهكذا محل ميلاده ، واستخدام بعض الصيغ المراد منها الثناء علي المتوفى من خلال ذكر محاسنه مثل إبداء الشجاعة في الحرب دفاعاً عن أرض الوطن.

من أهم العناصر البنيوية في الإبجراما الجنائزية هو ذكر محاسن المتوفى ، وهدف هـــذا البحث هو إلقاء الضوء علي بعض الصفات الحميدة للمرأة المذكـــورة في هذه القصائد وبصفـــة خاصة في العصر الهللينستي.

يمكن تقسيم هذه الصفات إلي أخلاقية ودينية وبعضها يبرز الجانب الاجتـــماعي والـــترابط الأسري الناتج عن رعاية المرأة لأسرتها. ففي الأنثولوجـــيا البالاتينية[٦] يتم الثناء علي المـــــرأة لأنها طيبة (ἐσθλή) أو عاملة (ἐργάτις) أو محبة لزوجها ولأبنائها أو عفيفة أو تقيـــة. ففي نقش من القرن الرابع ق.م.[٧] نجد أن رجلاً يطري علي زوجته المفقودة لأنها تركت لأبنائـــه ذكري طيبة نتيجة الفضيلة التي نتيجة للفضيلة (ἀρετή) التي تحلت بها أثناء حياتها:

μνημεῖον δὲ ἀρετῆς παισὶν ἐμοῖς ἔλιπεν.

وفي نقش يؤرخ بحوالي عام ٣٦٠ ق.م.[٨] يتم وصف امرأة بأنها طيبة وفي نفس الوقت رزينة:

δ σπάνις ἐστὶ γυναικί, ἐσθλὴν καὶ σώφρονα φῦναι.

وفي نقش أخر من القرن الرابع ق.م.[٩] يثني علي المتوفاة لأنها كانت عاملـــة (ἐργάτις) و مدبرة (φειδωλός):

ἐργάτις δσα γυνὴ φειδωλός τε ἐνθάδε κεῖμαι Νικαρέτη.

في هذا النوع من الإبجرامات تندر الإشارة إلي جمال المـــرأة (κάλλος) ، إلا أننـــا نجد استخدام هذا النعت بكثرة في بداية الفترة الرومانية ، ومع ذلك فإن معظم هذه النماذج التـــي وصلتنا تأتي من خارج بلاد اليونان وخاصة من روما. وترسم إبجرامات العصـــــر الهللينســـتي صورة للمرأة تنطبق إلي حد كبير علي خصائص المرأة الكلاسيكية ، وهو ما تعبر عنه بصـــدق أحد عبارات يوريبيديس (أندروماخي ، ٢٠٧ — ٢٠٨):

" أيتها المرأة , ليس الجمال ولكن الفضائل هي التي تنال رضا الرجال ".

في الإبجراما AP. 7. 337, 6. ، المنســـوبة لمؤلف مجهول ، يتم مدح المرأة لأنها تتســـم بالنبل ودماثة الخلق والفطنة:

εὐγενίην ἐράτην, ἤθεα, σωφροσύνην.

ويقرر الشاعر في البيت الخامس من نفس القصيدة أن هذه الصفات هي التي تجلب السمعة الطيبة للبشر[١٠]:

πάντα γάρ, ὅσσα βροτοῖσι φέρει κλέος.

" لأن لديها كل ما يجلب الشهرة للبشر ".

وفي العصر الهللينستي ألفت الشاعرة آنيتي من تيجيا إبجراما في تأبين فتاة توفت قبل الزواج[١١] وكان أسمها ثيرسيس ، حيث تمدح جمال هذه الفتاه[١٢]:

παρθενικάν, μέτρον τε τεὸν καὶ κάλλος.

" (لقد وضعت أمك) علي قبرك تمثال علي هيئة عذراء له نفس قامتك وجمالك ".

ويطري شعراء الإبجراما الجنائزية علي سمات أخري في المرأة مثل القدرة علي الإنجاب وحسن رعاية الأبناء ، مما يعكس المفهوم التقليدي لدور المرأة في المنظومة الأسرية. ففي الإبجراما AP . 7. 484, 3. ، يمدح الشاعر ديوسكوريديس (القرن الثالث ق.م.) امرأة كان أسمها بيو لأنها كانت امرأة فاضلة ولقدرتها علي الإنجاب (εὐτεκνος). وفي إبجراما أخري (AP. 7. 425, 4) للشاعر أنتيباتروس من صيدا ، نجد الإشادة بدور المتوفاة في حياتها من حيث رعايتها الشديدة لأطفالها:

ἁ δὲ κύων τέκνων γνήσια καδομέναν.

" وترمز صورة الكلبة إلي أنني قمت برعاية أطفالي بمنتهى الإخلاص[١٣] ".

وأيضاً يتم الإطراء علي الأعمال المنزلية التي كانت تقوم بها المرأة في ذلك العصر مثل عزل ونسج الصوف (ἔἰρια)، كما نجد في الإبجراما AP. 7. 423, 3.، للشاعر أنتيباتروس من صيدا:

τὰ δ' ἔἰρια τὰν φιλοεργόν.

"ويدل غزلها ونسجها للصوف علي أنها محبة للعمل ".

كما يتم التعبير عن حب الزوجة لزوجها في الإبجرامات الجنائزية. ففي الإبجراما AP 7. 691 ، لشاعر مجهول ، نجد في بداية القصيدة استلهام لأسطورة الكستيس[١٤] لإبراز العلاقة الطيبة والألفة بين الزوجين:

Ἄλκηστις νέη εἰμί, θάνον δ' ὑπὲρ ἀνέρος ἐσθλοῦ,
Ζήνωνος, τὸν μοῦνον ἐνὶ στέρνοισιν ἐδέγμην,
ὃν φωτὸς γλυκεῶν τε τέκνων προὔκριν' ἐμὸν ἦτορ,
οὔνομα Καλλικράτεια, βροτοῖς πάντεσσιν ἀγαστή.

" أنا الكستيس الجديدة ، ومت بدلاً من زوجي الطيب زينون ، الوحيد الذي أخذته في صدري والذي فضله قلبي علي ضوء النهار وعلي أبنائي الأحباء. اسمي كاللليكراتيا ، وكان الجميع يوقروونني ".

ونجد أيضاً التعبير عن الحزن الذي يسببه الانفصال بين الزوجين نتيجة الموت ، وأيضاً عن الزوج الذي ينعي وفاة زوجته في ريعان شبابها بعد أن خلفت ورائها أطفالاً في سنّ صغيرة متذكراً إخلاصها له ، وأيضاً الزوج الذي يعرب عن رغبته في البقاء بجانب زوجته حتى بعد الموت مثلما عاش معاً. ونذكر علي سبيل المثال الإبجراما AP. 7. 465. ، للشاعر هيراقليطوس ، التي تجسد ذلك الحب بين الزوجين حيث أن المرأة تقرر أنها أنجبت توأمين ومماتت وتوفي معها أحدهما بينما بقي الثاني حياً. وبراعة الشاعر في التعبير عن هذه الفكرة تكمن في أنه يخبرنا بأن المرأة اصطحبت أحد الطفلين معها لكي يذكرها بزوجها بينما تركت الأخر لكي يكون عوناً لوالده في شيخوخته:

δισσὰ δ' ὁμοῦ τίκτουσα, τὸ μὲν λίπον ἀνδρὶ ποδηγὸν
γηρώς· ὃν δ' ἀπάγω μναμόσυνον πόσιος.

" لقد أنجبت توأمين، تركت أحدهما لكي يعول والده في شيخوخته، بينما أخذت معي الأخر لكي يذكرني بزوجي ".

وفي بعض الإبجرامات يعرب الزوج عن حزنه لأن قبر زوجته غير قريب من قبره[١٥]. من القصائد التي تعكس الحب المتبادل بين الزوجين نشير للإبجراما AP. 7. 475 ، لديوتيموس ، التي تتناول موضوع امرأة اسمها أسكيلليس (Σκύλλις)

توفت بعد فترة وجيزة من زواجها حيث ماتت حزناً علي زوجها المتوفى:
Νυμφίον Εὐαγόρην ποτὶ πενθερόν...

فالشاعر يذكر أن المرأة فقدت حياتها بعد ثلاثة أشهر أثر وفاة زوجها (AP.7. 475, 5-6):

...τριτάτῳ δὲ κατεφθιτο μηνὶ δυσαίων
οὐλομένη ψυχῆς δύσφρονι τηκεδόνι.

" لقد ماتت التعسة في الشهر الثالث فقد زهقت روحها بسبب حزنها الأليم ".

وتعتبر الإبجراما AP. 7. 378, 1 – 2. (للشاعر أبوللونيداس من القرن الأول (الميلادي) عن نفس الفكرة.

Ἔφθανεν Ἡλιόδωρος, ἐφέσπετο δ', οὐδ' ὅσον ὥρῃ
ὕστερον, ἀνδρὶ φίλῳ Διογένεια δάμαρ.

" لقد مات هليودوروس ، وفي أقل من ساعة لحقت زوجته ديوجينا بزوجها العزيز ".

ومما يسترعي الانتباه أن نفس هذه الإبجراما تعبر عن فكرة ذكرناها من قبل والتي تتلخص في رغبة الزوجين في أن يدفنا معاً في نفس القبر مثلما ظل معاً في حياتهما مما يعطي الانطباع بوجود علاقة طيبة بين الزوجين (AP. 7. 378, 3- 4):

ἄμφω δ', ὡς ἅμ' ἔναιον, ὑπὸ πλακὶ τυμβεύονται,
ξυνὸν ἀγαλλόμενοι καὶ τάφον ὡς θάλαμον.

" ولقد تم دفنهما معاً تحت نفس الأرض ، مثلما استقرا معا (في حياتهما) . ولقد سعدا بمشاركة بعضهما البعض نفس القبر مثلما هنئا بمشاركة سرير العرس ".

لقد نجح الشاعر في إبراز هذا المعني الجميل عن طريق توظيف أحد الأساليب البلاغية ألا وهو التضاد الناتج عن الإشارة إلي القبر من ناحية وإلي سرير العرس من ناحية أخري. والكلمة ἄμφω في البيت الثالث توحي بأن الحب بين الزوجين لم ينتهي بالموت. بمعني آخر يمكن اعتبار أن الزوجين قد وجدا عزاءً عن الموت في استطاعتهما البقاء معاً حتى بعد أن لقيا حتفهما(١٦).

وفي كثير من الإبجرامات الجنائزية يتم الإشارة إلي حب الزوج لزوجته. فعلي سبيل المثال نذكر الإبجراما AP . 7. 330 ، لمؤلف مجهول , التي تعبر عن ماكسيموس الذي شيد قبراً في حياته ليدفن فيه مع زوجته(١٧):

σύν τε, γυναικὶ Καληποδίη τεῦξεν τόδε σῆμα,
ὡς ἵνα τὴν στοργὴν κἠν φθιμένοισιν ἔχοι.

" لقد أعد هذا القبر لزوجته كاليبوديا أيضاً ، لكي يحظي بحنانها حتى وهو بين الأموات ".

من المعروف أن التعبير عن حب الزوج لزوجته ليس قاصراً علي الإبجراما الجنائزية فتكفي الإشارة إلي بعض المؤلفات التي تحوي هذه الفكرة . ففي مسرحية الكستيس للشاعر يوريبيديس (٢٤١ — ٢٤٣) تلمح الجوقة إلي أدميتوس قائلة أنه بعد أن فقد أفضل زوجة ، سيعيش من الآن فصاعداً حياة هي ليست بحياة. وفي مشهد أخر يصرح الشاعر علي لسان ادميتوس نفسه أنه بفقده لزوجته الكيستيس يري أن حياته قد فقدت بهجتها (٣٤٥ — ٣٤٧).

إلا أن الصورة في الإبجراما الجنائزية لا تقتصر علي المدح والتقريظ الذي يغدقه الشعراء علي المرأة ، حيث توجد بعض الانتقاضات التي تنم عن شيء من عدم القبول تجاه النساء ، خاصة عندما يتناول موضوع الإبجراما عادة الثرثرة أو السكر[١٨]. كما في الإبجراما AP . 7. 455, 4-6. ، للشاعر ليونيداس من تارينتم ، التي هي عبارة عن هجاء لامرأة مسنة كانت مغرمة بالشراب في حياتها (φίλοινος) ويتهكم منها الشاعر معلناً أنها حزينة في قبرها ليس لأنها تركت زوجها وأبنائها وهم يعانون من شظف العيش بل لأن الكأس المنحوتة فوق قبرها توجد خاوية من الخمر:

στένει δὲ καὶ γᾶς νέρθεν, οὐχ ὑπὲρ τέκνων,
οὐδ' ἀνδρός, οὓς λέλοιπεν ἐνδεεῖς βίου,
ἐν δ' ἀντὶ πάντων, οὔνεχ' ἡ κύλιξ κενή.

إلا أن صورة المرأة في الإبجراما الجنائزية تكتسب المزيد من الوضوح عندما نشير إلي دور المرأة لم يكن محصوراً في أداء واجباتها في محيط الأسرة وإجادة الأعمال المنزلية فقط ، بل أنها كانت نشطة وفعالة ومتواجدة علي الساحة الأدبية أيضاً. فعلي سبيل المثال نعرف أن هناك العديد من الشاعرات اللائى أبدعن في مجال الشعر مثل ارينا التي يرثيها أسكلبياديس من ساموس في الإبجراما AP. 7. 11. ، حيث يمدح مؤلفاتها التي كانت تتسم بالإيجاز (ὀ γλυκὺς οὗτος πόνος) ومع ذلك فهي جيدة حقاً (οὐχὶ πολύς)، وهي التي أمتدحها أيضاً ليونيداس من تارنتم (AP. 7. 13.). ونذكر أيضا الشاعرة فيلاينيس التي

رماها بوليكراتيس الأثيني بأنها قد ألفت أشعاراً مشينة وغير لائقة ، إلا أن أيسخريون قد نفي ذلك (AP. 7. 345, 9.):

ἔγραψεν οἳ' ἔγραψ', ἐγὼ γὰρ οὐκ οἶδα.

" لقد كتب هو ما كتب ، ولكنني لا أعرف عن ذلك شيئاً ".

وقد دافع عنها أيضا ديوسكوريديس ضد هذه التهمة الفظيعة قائلاً علي لسان الشاعرة أنها لم تكتب تلك المؤلفات الخليعة (AP. 7. 450, 3-4.):

οὐκ εἰμ' ἡ τὰ γυναιξὶν ἀναγράψασα προσάντη
ἔργα, καὶ Αἰσχύνην οὐ νομίσασα θέον.

" لست أنا التي كتبت مؤلفات مشينة للنساء ، ولست أنا التي لم أوقر ربة الحياء كإلهة ".

خلاصة القول ، في الإبجرامات الجنائزية عامة وفي تلك التي تنتمي للفترة الهللينيستية خاصة ، نجد أن الشعراء يرسمون صورة للمرأة تكاد تنطبق ملامحها الرئيسية علي شخصية المرأة كما تصورتها العصور القديمة. ففيها يتم الثناء علي ما كان المجتمع في ذلك الوقت يعتبره من أهم ما تتحلى به المرأة من الناحية الأخلاقية والدينية: فهي عاملة (ἐργάτις) ومدبرة (φειδωλός) وطيبة (ἐσθλή) ومحبة لزوجها ولأبنائها ، وتتسم بالفضيلة (ἀρετή) ودماثة الخلق (ἤθεα) وتقوم بواجباتها المنزلية دون خلل أو كلل.

إلا أن دور المرأة في المجتمع لم يقتصر علي هذا النطاق المحدود والمحدد بالمنزل بما يتضمنه هذا المفهوم من رعايتها لأسرتها ، بل أنها برزت في أحيان كثيرة وأدلت بدلوها في مجال الإبداع الأدبي لعصرها ، حيث ألفت أشعاراً تم الثناء عليها ، وفي بعض الإبجرامات يمدح الشعراء المرأة لتحليها بالفطنة (σωφροσύνη).

الهوامش:

(١) من أهم الطبعات التي نشير إليها عند دراسة نصوص الإبجراما:

- A.S.F. GOW & D. L. PAGE, THE GREEK ANTHOLOGY, HELLENISTIC EPIGRAMS, CAMBRIDGE, 2 VOLS., 1965. P. WALTZ ET ALII, ANTHOLOGIE GRECQUE, 7 VOLS., PARIS 1928 – 1957.

(٢) في هذا البحث نشير بالمصطلح " هللينيستي " إلي الفترة التي تبدأ بموت الإسكندر الأكبر (٣٢٣ ق.م) وتنتهي بعام ١٠٠ق.م. ، وهو العام الذي تم فيه تأليف مجموعة مختارات شعر الإبجراما التي تعرف بـ Στέφανος للشاعر مليجروس من جادارا. ينبغي الإشارة إلي أن تحديد الفترة الزمنية للعصر الهللينستي ليس من السهولة بمكان ؛ ولمزيد من التفصيل حول هذه المسألة ، قارن رسالتي للدكتوراه:

- H.M.YASSIN, TIPOLOGIA DEL EPIGRAMA FUNERARIO HELENISTICO (DISS.), MURCIA, SPAIN 1999, P. 5 n. 4 & PP. 36 – 39.

(٣) يوجد إبجرامتان هما في الكتاب السابع للأنثولوجيا البالاتينية رقمي ١٧٧ (سيمونيديس) و ٧٤٦ (فيثاغورث)

(٤) حول هذه المسألة , أنظر :

- E. DEGANI (1993), " L 'EPIGRAMMA ", LO SPAZIO LETTERARIO DELA GRECIA ANTICA. I. LA PRODUZIONE E LA CIRCOLAZIONE DEL TESTO. II. L' ELLENISMO, ROMA, P. 197 S.

(٦) هي مختارات من شعر الإبجراما ويرجع تاريخها للقرن العاشر الميلادي عندما قام بتجميعها قنسطنطين كفالاس معتمداً علي نماذج لمختارات أخري سابقة عليه ، والتي كانت تعتمد – علي الأرجح – علي ثلاثة مختارات أكثر قدماً هي: الإكليل Στέφανος للشاعر مليجروس من جادارا وأكليل فيليبوس في القرن الأول الميلادي ومجموعة أجاثياس في القرن السادس الميلادي . يجب الإشارة إلي أن هناك بعض الإبجرامات التي وصلتنا من مصادر أخري غير الأنثولوجيا البالاتينية مثل Peek و Kaibel و أثينايوس ... الخ.

(٧) قارن Peek , 891 , 3 , وهو نقش من بدايات القرن الرابع ق.م وهو عبارة عن بيت سداسي وبيت في البحر الخماسي الداكتيلي من Pireo, عن امرأة أسمها خايريبي.

(٨) Peek , 890 , وهو عبارة عن بيتين في البحر الإليجي من Pireo ، عن امرأة أسمها جليكرا.

(٩) Peek , 328 ، عثر عليه في أثينا علي شاهد ضريح , من النصف الأول للقرن الرابع ق.م. وهو عبارة عن بيت في البحر السداسي الداكتيلي.

(١٠) في الإبجراما AP. 7 . 614 , 14 ، للشاعر أجاثياس (القرن السادس الميلادي) يتم الإطراء علي المتوفاة التي كان معروف عنها التعقل:

....., ἐς κλεινᾶς μνᾶμα σαοφροσύνας.

(١١) فيما يتعلق بهذا الموضوع أنظر رسالتي للدكتوراه (أنظر ملحوظة ٢ عاليه) , ص ص ٢٦٢-٢٧٦ .

(١٢) AP. 7. 649, 3 .

(١٣) في هذه الإبجراما يستخدم الشاعر أحد الوسائل الأدبية التي تكمن في افتراض وجود رموز معينة علي القبر، وهو بدوره الذي يحاول فك طلاسم هذه الرموز. ظهر النوع من القصائد في العصر الهللينسيني لكنه أنتشر بصورة ملحوظة في أواخر هذا العصر علي يد الشعراء مثل أنتباتروس من صيدا وملياجروس من جادارا.

(١٤) فيما يتعلق بمقارنة الزوجة بالكستيس للتعبير عن التفاني في حبها , قارن علي سبيل المثال: Peek , 2005 , 1736 , 2088 a , 482.

(١٥) في مسرحية حاملات القرابين لأيسخليوس (٨٩٤ - ٨٩٥) يتحدث أوريستيس إلي كليتيمنسترا قائلاً: هل تحبين هذا الرجل ؟ فلترقدين إذاً في نفس القبر. لا تهجريه ولا حتى عند الموت،،: قارن أيضاً آبيات ٩٠٦-٩٠٧ من نفس المسرحية ومسرحية أنتيجونا لسوفوكليس (١٢٤٠-١٢٤١) ومسرحية الكستيس ليوريبيديس (٣٦٣ - ٣٦٨). هذه الفكرة ترد أيضاً في الإبجراما AP . 7 . 378 ، للشاعر بيانور ، حيث نجد أن بيرسيفوني استجابت لنحيب الأب ودفنت الابن في حضن أمه.

(١٦) الفكرة الرئيسية هنا هي أن الزوجين استطاعا الانتصار علي الموت عن طريق الحب المتبادل بينهما مما يذكرنا بالإبجراما AP. 7. 80 للشاعر كاليماخوس التي قد توحي بأن

الصداقة و الشعر يمكن أيضاً أن ينتصرا علي الموت: قارن أيضاً رسالتي للدكتوراه (أنظر ملحوظة ٢), ص ص ٤٩٦ - ٥١٥.

(١٧) قارن أيضاً الإبجراما AP . 7. 340 ، لمؤلف مجهول.

(١٨) تنبغي الإشارة إلي أن هذه الانتقادات توجه أيضاً إلي الرجال وخاصة المسنين منهم. فالإبجراما AP . 7 . 454 ، لكاليماخوس ، تتناول موضوع إيراسيكسينوس الذي مات بسبب الشراب ، وهناك العديد من الإبجرامات التي تتحدث عن ولع الشاعر الغنائي أناكريون بالخمر (قارن مثلاً الإبجراما: AP. 7. 23 و AP. 7. 26-27 للشاعر أنتيباتروس من صيدا والإبجراما AP. 7. 345 لأيسخريون حيث يستخدم الشاعر المصطلح παιπάλημα (ثرثرة) لهجاء بوليكراتيس الأثيني.